

رأس المال الديني وآليات التنمية

- مقارنة أنتروبولوجية

د/ أحمد أوراغي – جامعة تلمسان.

تقديم :

يحيل مصطلح "رأس المال" إلى ذلك التراكم الحاصل على مستوى الموارد الإقتصادية ، وهذا انطلاقا من المرجعية الثقافية للمدلول الإستعمالي للمصطلح ، حيث ظهر مع تقديم كارل ماركس لنظريته الإجتماعية التي تناول من خلالها نقد الإقتصاد الساسي في أوروبا وما أفرزته من توجهات وكذا مانتج عنها من تحولات مست مختلف الجوانب المؤطرة لوجود الإنسان سلوكياته.

حيث يعد الجزء الأول من كتاب ماركس لرأس المال نحو أجا تتبع فيه ماركس عملية نشوء الرأسمالية منذ بدايتها ، و المثمثلة في التراكم البدائي لرأس المال .و بذلك فإن معالجة ماركس لبروز المجتمع الرأسمالي من رحم النظام الإقطاعي ، وكذلك بروز المشاريع الرأسمالية وما أفرزته في أثار على كل مظاهر المجتمع و الوعي البشري يمثل نموذجا خاصا لعملية التنمية (1)

ثم بدأت تتشكل اصطلاحات أخرى تتأسس على مفهوم " رأس المال لتقديم نماذج أخرى من الموارد المترسبة التي يعبر عنها المفهوم ، فظهر مصطلح رأس المال البشري "وكذا رأس المال الثقافي الذي عتبر بورديو في تلك المخزونات الثقافية التي تشكل تراكما ترسبات لها فاعليتها في مختلف عمليات

الحراك الإجتماعي ، وكذا رأس المال الرخزي" ثم رأس المال الديني " الذي يقوم على إعتبار الدين كقيمة رخرزية محددا العمليات التوجه الإجتماعي و الإقتصادي و السياسي .

2- رأس المال الديني: وآليات التنمية

- يشير مصطلح رأس المال الديني إلى عملية استثمار فاعلية الدين بغية الحفاظ على وضع ما يكون قائما أو بغية تحقيق أهداف إجتماعية أو اقتصادية أو غيرها ، للمجتمع ، و تساعده في توليد قيم مضافة فالدين الذي ناضل من أجل الحصول على استقرار المجتمع قدم قيمة مضافة لاوضاع المجتمع ، و الدين الذي ساعد بطاقته المعنوية على إنتصار المجتمع في حرب قدم قيمة معنوية ومادية مضافة إلى رصيد المجتمع ، و الدين الذي يشكل الضمير الفرد يجعل الإنسان المؤمن مكربا لعمله باعتباره رسائل إنما يعمل على زيادة الإنتاج ويولد قيما مضافة لذلك اتجهت المجتمعات التي امتكلت وعيا بذلك إلى الدين باعتباره رأس مال يولد قيما مضافة تساعد على تأكيد قوة المجتمع و بأس مناعته (2)

- فالدين ، بما يمثله من محاولات مترسبة في الوعي الإنساني ، مواء أكان وعيا فرديا أم جمعا ، إنما يقدم تصورا العملية البناء الاجتماعي وكذا العلاقات المؤطرة له ، من تبادلات اقتصادية ومماسات ساسية ورباطات اجتماعية وتوجهات ثقافية وغيرها ، وهو بذلك يشكل رأسماك فعال في تشكيل سلوك الأفراد وقيمهم وتحدد اتجاهاتهم ويسطر عليها ، بغية لعب دور المحرك في تعبئة الأفراد وحملهم من بسط قيمة التنمية المتوخاة..

يصر البعض على ان علاقة المجتمع الدين هي علاقة تجاذبية ، كبرجر (p.berger) ولوكمال اللذان يذهبان الى التحولات الاجتماعية الحاصلة في المجتمع تجعل من الدين قيمته متوازية ، لا تظهر إلا على مستوى الخاص – أي التدين الفردي .وخاصة في ظل سيطرة المؤسسات الساسية و الإقتصادية على التوجهات العامة للجماعات (3)

في حين ينظر آخرون إلى الدين في الحياة المعاصرة من خلال مقاربتة بمشروع الحداثة القائم على العقلانية أو عقلنة الوجود الإنساني وما يحيط به من لوكات ومعتقدات وتوجهات وذلك باعتبار أن المجتمع الذي ينتقل بي مجتمع حديث تخبر عمليات تباين تجعل الدين يتوارى الى الحيز الخاص ، فالمجتمع الحديث لا يعرف ديانة بعينها و لكنه يسمح بالتعددية الدينية ومن ثم لا يمكن ليانة تقليدية بعينها أن تسطير على المجال العام ، ومن هنا يصبح الدين مسألة خاصة (4)

وقد زاد من حدة طروحات خصصة الدين كما يتول الأستاذ احمد زايد (5) ، تلك الثقافة الكونية التي أفرزتها "العولمة "، حيث تم بلورة "ثقافة عالمية تحمّل طابعا خاصا تسعملها الفئات المسيطرة للإستفادة منها في العمليات الإقتصادية و السياسية و الاجتماعية ، ويساعدها على ذلك احتكارها للتنمية و الإنتاج الإعلامي على

الصعيد الدولي وهذا مايساعد على تشكيل انماط محددة من الوعي الثقافي ، وبذلكيمكنها من فرض نماذجها و فلسفاتها عن طريق إنتاج وتوزيع واستهلاك المواد الإعلانية و الإتصالية " (6)

غير أن هذا لايلغي دور الدين كمحرك للوعي الفردي و الجمعي ، و ذلك ما تؤكدمختلف عمليات الانتقال الاجتماعي الحاصلة في الحضارة الغربية نفسها (المنتجة لمفاهيم خصوصية الدين و عالمية الثقافة) و التي ظلة دوما تحتكم إلى فوج من المرجعيات الدينية كمركز البروتستانتية (أو مركزالإصلاح الكسني) التي ارتبطة بمشروع النهضة الأوروبية القاع على التفسير الأسامي للتوج الحضاري الأوروبي و ما ينتج عنه من مشروع مداتي لا يزال يتحكم في مسار الخيارات الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية الأوروبية القائمة على التفسير الرأسمالي للتوحيد الحضاري الأوروبية و ما ينتج عنه من مشروع حداثي لا زال يتحكم في مسارات الخيارات الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية الأوروبية.

فالدين قيمة رمزي تشكل مجموعة من الخبرات الفاعلة في توجيه سلوكالإنسان و هدفها تحريك الإنسان ودفعه إلى الفعل بأشـر رمزي آلية فيه أي أنها نتجية إليه بما هو طبيعة بل بما هو ثقافي وبمفعول الرمزي (7)

ومن خلال التجربة الحضارية الإسلامية تنصح بجلاء أهمية رأس المال الديني في توجه مسارات النهضة التنمية ، وذلك من خلال إخضاع مختلف التوجهات الاجتماعية و الأنماط السلوكية و التفاعلات الثقافية و الممارسات الاقتصادية إلى قواعد التشريعة المأصلةفي الوجدان العام و الخاص ، بغية تأسيس نقلة حضارية تتوخر تطوير المجتمع الإسلامي وتمدينة . وبذلك شكل الإسلام – كدين أو كمنهج إلهي –نقطة الارتكاز التي قامت عليها مختلف النماذج الحضارية الإسلامية.

كما أن بعض منظري النظري الاجتماعية يلحون على دور الدين كتكوين ثقافي في عملية التكوين الاجتماعي ، كبورديو الذي يذهب إلى أن كلما كانت البنية الموضوعية في أي تكوين اجتماعي أكثر ثباتا و أكثر قدرة على إعادة إنتاج نفسها وفقا لشروط الأفراد كلما أصبح امتداد مجال الدين اعظم

1- رأس المال الديني : مقاربات في المفهوم:

يعد الدين مجموعة من القيم التي تنتق عنها مختلف النشاطات الممارسات الإنسانية الحيوية و النفسية و المعاملات الحركية التواصلية وكذا المعنوية الأخلاقية و الذاتية ، وجملة هذه التفاعلات المتداخلة تعد مجتمعة بمثابة موجهات لسلوكات الفرد في علاقات الاجتماعية ، ومن ثم يشكل الدين حلقة رئيسة في عمليات التفاعل الاجتماعي ، الفردي الذي يقوم على تورات ذهنية تقصي إلى سلوك شخص وكذا الجمعي في شكل تحديد مجموع التصرفات و العلاقات الرابطة للجماعةفيما بينها وبينها وبين غيرها بين الجماعات المتوافقة أو المخالفة لما في الفكرة المعتمدة .

إذ ان الدين باعتباره مجموعة من القواعد الضوابط المنهجية لمختلف السلوكيات الانسانية . التي تملي على الافراد كيف يتصرفون و على أي نحو يكون سلوكهم ، ومن ثم تكون بمثابة خط متعارف عليه تستهدف تحقيق الضبط الاجتماعي و تضبط الحلول و الجزاءات لأولئك الذين لا يأخذون في الاعتبار هذه القواعد السلوكية(8)

يمثل مخزونا تراكميا من المعرف و التوجهات التي تشكل منظومة اخلاقية تكون بمثابة رأس مال رمزي / غير مادي تقوم عليه مختلف توجهات الأفراد و الجماعات مواد اكانت هذه التوجهيات عبارة عن ميولات ثقافية أم انماط وممارسات اجتماعية ام معاملات اقتصادية ام غيرها .

ويشير المفكر الجزائري مالك بن نبي الى ذلك التفاعل الحاصل بين الدين كقيمة رمزية وبين التكوين الاجتماعي بما يجور من تفاعلات اجتماعية و تغيرات ثقافية وغيرها ، حين يذهب الى ان العلاقة الروحية بين الله و الإنسان و اخيه الإنسان (9) ومعني هذا حسب مالك بن نبي ان الدين يخلق نظاما اجتماعيا يستجلب فيه الفرد الى افراد كثيرين (10)

ومن ثم يصبح الدين حلقة لها حضورها في تشكيل المنظومة المرجعية التي تتأسس وفقها عمليات التغير ، الاجتماعي و الثقافي و التي يمكن اعتبارها كحوصلة لمجموع .

رؤوس الأموال ، المادية(البشرية و الإقتصادية) و الرمزية (الدينية و الثقافية) ، أو المخزونات التي تقوم عليها عملية النهوض / التنمية.

هذه المخزونات التي تقوم بعمليات إنتاجية أو استثمارية بمختلف المنتوجات بغية تحقيق غاية ما ، إذا كان مفهوم رأس المال في النظرية الإقتصادية يتشكل من استثمار الموارد في إطار السوق ، طلبا للحصول على عائدات محددة ، وعلى هذه النحو يتشكل رأس المال من الموارد حينما يتم استثمار هذه الموارد أو تعبئتها في اتجاه السعي للحصول على الربح باعتباره هدفا للفعل ، في إطار ذلك يعبر رأس المال عن الموارد وينمو من خلال عمليتين : في إطار العملية الأولى يتم إنتاج الموارد وتحويلها كنوع من الإستثمار ، وفي العملية الثانية يتم نقل الموارد المنتجة أو المحرك إلى ساحة السوق للحصول على الربح وهو ما يعني ان رأس المال في جانب منه حصيلية عملية الإنتاج و الذي يعني انتاج او اضافة قيمة جديدة الى الموارد القائمة فعلا وفي الجانب الآخر يعد رأس المال متغيرا سببا في عملية الإنتاج (11) فان الدين باعتباره مجموعته من القيم يشكل رأس مالى يستند الى مجموعة من الموارد و المصادر "الرمزية " التي تعاد صاغتها من اجل اشباع حاجيات/ رغبات الفرد و الجماعة ، مواد اكانت هذه الرغبات مادية او معنوية.

فالدين باعتباره رأس مال يحقق الوحدة الاجتماعية من خلال مدة الأفراد بمجموع القيم (12) المشتركة بين جميع الافراد التي يتشكل منها الجماعة ، و يشير على لية في هذا .

2- القيمة باعتبارها مفهوما إجرائيا تختلف من فكر إلى فكر ، إذ يطلق لفظ القيمة في علم الأخلاق على يدل عليه لفظ الخير ، بحيث تكون قيمة الفعل تابعة لما يتضمنه أكبر وتسمى الصورة الغائبة المرتسمة على منتجات الذهن بالقيم المتالية *valeurs idéales* وهي الأصل الذي تبني عليه أحكام القيم (*jugement de valeurs*) أي الأحكام الإنشائية التي تأمر بالفعل أو بالترل .

أنظر: جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، ج 2 ، دار الكتاب اللبناني بنان 1982، ص 212-213 أما في الفكرة الاجتماعية فإن الاستناد إلى القيم أمر ثابت عند علماء الاجتماع الكلاسيكيين ، لاسيما دور كهايم "وءقير" ويمكن اعتبار احد التدابير الأكثر ابتكار الفكرهم فيشدد "وءقير" على أهميته الطهرية في تكوين الروح الرأسمالية ، أما دور كهايم "فإن التمييز المهم في نظر و الذي بقيمة بين التضامن من الألي و التضامن "

العضوي يرد إلى تصورين لما يعتبر شرعيا في هذين النمطين من المجتمعات الشديد التناقض : من جهة امتصت الفرد في الوحدة الجماعية ، ومن جهة أخرى اعتبار المجتمع محصلة الجهود الفردية المنسقة و المراقبة وتتأمن الوحدة الاجتماعية بالنسبة دور كهايم بواسطة القيم الرسخر في الأفراد موزعة بينهم وممثلهم من قلهيم هذه القيم المصوفة غالبا بأنها أخير ونهائية تقدم باعتبارها مرتبطة بالتجريبية الدينية (انظر : زيودون وف بوريكو : المعجم النقدي لعلم الاجتماع ، ترجم : سليم حداد ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ط1 ، 1986 ، ص 450-451) .

فالقيم عند علماء الاجتماع لسيثيئنا : اكثر من افضليا جماعية تظهر في وضع مؤسساتي و تساهم بطريقة تكونها في تنظيم هذا الوضع..... وهي لا تختزل الى أفضليات فردية بما انها تنشأ عن ثقافات و نزاعات او تسوية بين تنوع من الآراء وجهات النظر وهي تلزم هؤلاء الذين ينتمون اليها ولكن تقتضي عدم الإستنتاج من ذلك ان القيم مبادئ اكيدة وصريحة واضحة المعنى يمكننا انطلاقا منها استنتاج ترتيبات معيارية خاصة اضافة الى كونها تظهر دائما مركبة لتكونها في محيط متعدد الأبعاد. (المرجع نفسه ، ص 451) في حين ان اصحاب الاتجاه الطبيعي يرون ان المصدر الأساسي للقيام عند الأفراد هو ثقافة المجتمع الذي ينشاون ويعشون فيه وان المصدر لهذه الثقافة هوتاريخ ذلك المجتمع وتراثه الذي نقل عن طريق التربية و التنشئة التي تمثل الوسيلة لاي جماعة في المحافظ على قيمتها الأساسية كما انها تسهم في تعديل و تطوير ما يحتاج منها الى ذلك .

(راجع : نجيب اسكندر ابراهيم وآخرون : الدراسة العلمية للسلوك الاجتماعي ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ، بيروت 1961، ص162)

- الصدد إلى أنر من الممكن أن نستكشف البدايات الأولى للتعامل مع الدين كرأسمال في التنظير الذي قدمه ماكس فيبر فيما يتعلق بالدورة الذي يلعبه الدين في نشأة النظام الرأسمالي (13)

- ومنه يمكن القول أن رأس المال الديني هو مجموعة الخبرات الدينية المتأصلة في الوعي الفردي و الجمعي و المنفضية إلى انبثاق منظومة بن المهارات المنضمنة المعرفة الدينية و الوعي بفاعلية العقيدة تلك الخبرات و المهارات التي تعكس في شكل نماذج إنتاجية (مادية و غير مادية) و التي يمكن استثمارها بغية تحقيق نوع من التقدم الـ إجتماعي و الثقافي و الاقتصادي.
- ورأس المال الديني مثله مثل بقية الأشكال الأخرى من رأس المال قابل للتحويل أو قابل للخضوع للعملية التي أطلق عليها بورديو bourdieu مصطلح تدوير رأس المال ، فمثلا يمكن تحويل رأس المال ، كما انه يمكن توريث رأس المال الديني ونقله من جيل لآخر .
- وبناء على ماسبق يتحدد مفهوم رأس المال الديني في شكل مجموعة من النظم و العقائد التي يجوز عليها الإنسان من خلال عملية معقدة من اكتساب المعرفة الدينية ، سواء اكانت عملية الاكتساب هذه تتم بشكل تعليم رسمي أو غير رسمي ومن تحويلها الى ارصيدة او شكل اخرى من رأس المال تتم عملية تحقيق المنافع ، سواء اكانت هذه المنافع ثقافية أم اجتماعية أم اقتصادية .

الهوامش

- 1- رابح كعباش : سوسيولوجيا التنمية ، منشورات مخبر على إجتماع الإتصال للبحث و الترجمة ، جامعة منشوري ، قسطنطينية ، 2007 ، ص 120
- 2- علي ليلة : النظام العربي متغيرات الإصلاح وحدوده ، دار الوافي للنشر ، القاهرة ، 2006 ، ص 42
- 3- راجع أحمد زايد: صور الخطاب الديني المعاصر : دار العين للنشر ، القاهرة 2007
- 4- المرجع السابق ، ص 186
- 5- نفسه
- 6- رابح كعباش : سوسيولوجيا التنمية ، ص 246
- 7- محمد السويدي : مفاهيم علم الاجتماع الثقافي ومصطلحات ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ط1: 1991 ، ص 71

- 8- فاروق اسماعيل : الأنثروبولوجيا الثقافية ، دراسة عقلية في الثقافات الحركية ، دار المعرفة الجامعة ، الاسكندرية ، جمهورية مصر أكتوبر ، 1984 ، ص 103
- 9- مالك بن بني : ميلاد مجتمع ، ترجمة : عبد الصبور شاهين دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان ، 2002 ، ص 56
- 10- المرجع نفسه ، ص 57

11- علي ليلة : النظام الوبر المعاصر ، ص 41

12- علي ليلة : النظام العربي المعاصر ، ص 42

13- علي ليلة : رأس المال الديني و القيمة المضافة للفعل الإنساني ، محلة الديمقراطية ، مركز الدراسات السياسية الإستراتيجية : القاهرة ، ع 26 ، 2007 ، ص 42-43